الغريزة مقياس نقدي
عند أبي العلاء المعري

د/عبدالله بن صالح الفلاح

الأستاذ المشارك في قسم اللغة العربية

كلية العلوم والآداب بالرس

جامعة القصيم

الغريزة مقياس نقدي عند أبي العلاء المعري

عبدالله بن صالح الفلاح
قسم اللغة العربية-كلية العلوم والآداب- بالرس- جامعة القصيم- المملكة العربية السعودية.
البريد الإلكتروني: flah@qu.edu.sa

ملخص البحث: يعد مصطلح "الغريزة" من المصطلحات النقدية القديمة التي استخدمها نقاد العرب القدماء، إلا أن هذا المصطلح لم تكتب له السيرورة والشيوع، لذلك كاد يندثر من كتب التراث في مفهومه النقدي إلا ما وجد من إلماحات متناثرة هنا وهناك.

وعندما قام الباحث بتحقيق كتاب "اللامع العزيزي" لأبي العلاء المعري لاحظ أنه يكثر من استخدام هذا المصطلح النقدي، مما جعل الباحث يرجع إلى كتبه وآثاره المختلفة فوجده قد سار على نفس المنوال في استخدامه، ومن هنا جاءت فكرة هذا البحث الذي اختار له عنوان "الغريزة مقياس نقدي عند أبي العلاء المعري"، وقد تناول الباحث فيه :

تعريف الغريزة، ومصطلح الغريزة عند القدماء، ثم مفهوم الغريزة عند أبي العلاء، وتطورها وتفاوتها عند المبدعين، ومعايير نقد الغريزة عند أبي العلاء، وعيوبها. ثم بيان أهم النتائج التي توصل لها الباحث.

الكلمات المفتاحية: الغريزة. أبو العلاء المعري. نقد. السجية. الطبع.

Instinct is a critical measure of Abu Ala Al-Maari

Abdullah bin Saleh Al-Falah
Department of Arabic Language - College of Science and Arts - Rass - Qassim University - Kingdom of Saudi Arabia.
Email: flah@qu.edu.sa

Abstract: The term "instinct" is one of the ancient critical terms used by ancient Arab critics. However, this term is considered to be not common, so it almost disappeared from the heritage books in its critical concept except for what was found scattered hints here and there.

When the researcher investigated the book "Al-Lama Al-Azizi" by Abu Al-Alaa Al-Maari, he noticed that he used this critical term a lot, which made the researcher return to his books and its various effects, and found that he followed the same path in his use, hence the idea of this research, which he chose for him the title "Instinct" A critical scale according to Abu Ala Al-Maari. The research was centered on:

The definition of instinct, the term instinct for the ancients, then the concept of instinct according to Abu Al-Alaa, its development and variation among the creators, the criteria for criticizing instinct according to Abu Al-Alaa, and its defects. Then a statement of the most important findings of the researcher.

Key words: Instinct. Abu Ala Al Maari. criticism. Temper. Nature.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

يعد مصطلح "الغريزة" من المصطلحات النقدية القديمة التي استخدمها نقاد العرب القدماء، إلا أن هذا المصطلح لم تكتب له السيرورة والشيوع، لذلك كاد يندثر من كتب التراث في مفهومه النقدي إلا ما وجد من إلماحات متناثرة هنا وهناك.

وعندما قام الباحث بتحقيق كتاب "اللامع العزيزي" لأبي العلاء المعري لاحظ أنه يكثر من استخدام هذا المصطلح النقدي، مما جعل الباحث يرجع إلى كتبه وآثاره المختلفة فوجده قد سار على نفس المنوال في استخدامه، ومن هنا جاءت فكرة هذا البحث الذي اختار له عنوان "الغريزة مقياس نقدي عند أبي العلاء المعري"، وقد انتظمه تمهيد وستة مطالب؛ كانت على النحو التالي:

- التمهيد وتناول الباحث فيه؛ أولا: تعريف الغريزة. وثانيا: مصطلح الغريزة عند النقاد القدماء.
- المطلب الأول: الغريزة عند أبي العلاء، وتناول الباحث فيه تعريف الغريزة، ومفهومها عنده، ومحاولة الكشف عن مراد المعري بها.
- المطلب الثاني: تفاوت الغريزة عند المبدعين، وبين الذكور والإناث ، وأنها ليست في درجة واحدة بل حظوظ الناس منها مختلفة.
- المطلب الثالث: تطور الغريزة، وبين الباحث فيه أن المعري يرى أن الغريزة ليست ثابتة بل تتطور حسب اختلاف العصر، فما كان سائغا مقبولا في العصر الجاهلي لم يعد مقبولا في العصر العباسي مثل الإقواء وبعض الأوزان الشعرية.
- المطلب الرابع: مستويات الغريزة: وتناول الباحث فيه المستويات المختلفة للغريزة عند المعري مثل الغريزة الخاصة والغريزة المتكاملة.

- المطلب الخامس: معايير نقد الغريزة، وتناول الباحث فيه المعايير النقدية المختلفة للغريزة، التي ذكرها المعري مثل القبول، والإنكار، والنبو، والإحساس.
- المطلب السادس: عيوب الغريزة، وذكر الباحث فيه عيوب الغريزة التي تناولها المعري مثل فساد الغريزة، أو استحالتها.
- الخاتمة: وتضمنت أهم النتائج التي توصل لها الباحث.

الدراسات السابقة:

لم أعثر على دراسة مستقلة، أو بحث مستقل تناول هذا الموضوع، إنما كانت وقفات يسيرة من خلال كتب تناولت النقد عند أبي العلاء، أو بحث عن مفهوم الشعر عنده.

فالدكتور السعيد عبادة تناول هذا الموضوع في كتابه "أبو العلاء الناقد الأدبي" بإشارة يسيرة ضمن حديثه عن المقاييس العامة لنقد أبي العلاء، تحت عنوان: "ثانيا: الغريزة، أي الحس الذوقي" وتحدث عن تعريف أبي العلاء للشعر، وربط قبوله بقبول الغريزة له([1]).

أما الدراسة الثانية فهي دراسة الدكتورة ناديا علي الدولة في كتابها "نقد الشعر في آثار أبي العلاء المعري"، في مبحث تحت عنوان "الشعر والغريزة"، ضمن الفصل الثاني الذي كان بعنوان "الشعر وتعريفه في نقد أبي العلاء([2])، وكما هو واضح من العنوان انطلق حديثها عن الغريزة من تعريف أبي العلاء للشعر، ثم أخذت بإيراد شواهد عديدة، قامت بشرحها، استخدم بها المعري الغريزة، مقياسا نقديا، وتناولت في هذا المبحث موضوعا بعيدا عن الغريزة، وهو وجوب تخصص الناقد، وألا يناط نقد الشعر إلا بأهل العلم به([3]).

---

١ – أبو العلاء الناقد الأدبي: ٤٦٨.

٢ – نقد الشعر في آثار أبي العلاء المعري: ٨٥.

٣ – انظر: المرجع السابق: ٩٥.

ويتناول الدكتور أحمد ساسي الشتيوي "الغريزة" عند أبي العلاء في بحثه الماتع "رؤية أبي العلاء المعري في الشعر"، منطلقا من تعريف أبي العلاء للشعر، وشرط قبول الغريزة له([1])، ثم عرف الغريزة، وتغيرها وعدم ثباتها([2])، وفسادها([3])، وحاول أن يتبين قصد أبي العلاء بها([4]).ويعد الدكتور الشتيوي أهم من تناول هذا الموضوع، إلا أنه تناول مُجمل لم يفصل القول فيه، والعذر له أن هذا الموضوع جزء من عدة موضوعات أخرى، لكن تبقى له فضيلة السبق، وعمله لا ينكر، بل يذكر فيشكر.

ومن الدراسات التي تناولت نقد أبي العلاء دراسة الدكتور وليد خالص "أبو العلاء المعري ناقدا"، إلا أنه لم يتناول هذا الموضوع إطلاقا، بل جاءت كلمة "الغريزة" عرضا عندما تحدث عن تعريف الشعر عند أبي العلاء([5]).

هذه أهم الدراسات التي تناولت "الغريزة" عند أبي العلاء المعري.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

١ – رؤية أبي العلاء المعري في لشعر: ٢١.

٢ – المرجع السابق: ٢٤.

٣ – المرجع السابق: ٢٥.

٤ – المرجع السابق: ٢٧.

٥ – أبو العلاء المعري ناقدا: ٩٦.

التمهيد

أولا: تعريف الغريزة:

"الغريزة: الطبيعة والسجية من خير أو شر، وقال اللحياني: هي الأصل والطبيعة، قال الشاعر:

إنَّ الشَّجَاعَةَ في الفَتَى والجُودَ مِنْ كَرَمِ الغَرَائِزْ(١)

وفي حديث عمر رضي الله عنه: "الجبن والجراءة غرائز؛ أي: أخلاق وطبائع صالحة أو رديئة، واحدتها غريزة"(٢).

والغريزة: هي الشِّنْشِنَةُ والطَّبِيعَةُ(٣).

"فالطَّبيعة، والخَلِيقَةُ، والغَرِيزَةُ بمعْنًى واحِد"(٤).

ويُعَرِّفُ الكفوي الغريزة بقوله: "هي مَلَكَة تصدر عنها صفات ذاتية، ويقرب منها الخلق، إلا أن للاعتياد مدخلا في الخلق دونها"(٥).

ويرى بعض العلماء –من غير اللغويين – أنَّ العَقْلَ هُوَ الغريزة، "يزيد ويقوى بالعِلْمِ والحلم"(٦).

ويروى عن سحبان وائل أنَّ "العقل بالتجارب؛ لأنَّ عقل الغريزة سُلَّمٌ إلى عَقْل التَّجربة"(٧).

---

١ – البيت لعمرو بن ود العامري، وهو في دلائل النبوة: ٤٢١/٣، وزهر الآداب: ٤٦/١، ومختصر تاريخ دمشق: ٥٣٦٨/١٥.

٢ – لسان العرب "غرز".

٣ – انظر جمهرة اللغة: ٢٠٧/١.

٤ – المصباح المنير: ٩٠/١.

٥ – الكليات: ٣١٠/٣.

٦ – وفيات الأعيان: ٥٨/٢، عن الحارث المحاسبي، وراجع أيضا: مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٢٨٧/٩.

٧ – البصائر والذخائر: ٢٢٢/١، والعقد الفريد: ٩٦/٢.

فيتَّضح ممَّا سبق أنَّ الغريزة هي الطَّبيعة والسَّجية، وبعض العلماء يرى أنها العقل، لكن الشائع عند كثير من الدارسين أن الغريزة مغايرة للعقل، كما سيتضح من خلال هذا البحث.

ثانيا: مصطلح الغريزة عند النقاد القدماء:

لم يكن مصطلح الغريزة متداولا بكثرة عند الأدباء والنقاد القدماء، لكن وردت إشارات وإلماحات متفرقة، تبين معنى الغريزة، وما المقصود بها، وكذلك أثر الغريزة في صناعة الأدب، فعندما سئل سهل بن هارون عن البلاغة أجاب بقوله: "الكلام المتحدر عن الغريزة على رسل تحدر الدُّرِّ من عقد أسلمته كف جارية إلى حجرها، لا يحمل فيه اللسان على غير مذهب السجية فيظهر فيه قبح التكلف"([1])، ولم يفسر سهل بن هارون ما المقصود بالغريزة، لكنَّهُ بَيَّن أنَّ مقياس بلاغة الكلام هو انسيابه من الغريزة، ينثال منها انثيالا دون عوائق تمنعه من ذلك، فالغريزة المتميزة التي ملكت أدوات البلاغة هي القادرة على ذلك.

ويؤيد كلام سهل بن هارون ما يروى عن بعض الأدباء من أن "الأدب أدبان؛ أدب الغريزة وهو الأصل، وأدب الرواية وهو الفرع، ولا يتفرع شيء إلا من أصله"([2])، فالأدب الأصيل الذي يدل على ملكة الأديب، ويُحْكَمُ بِهِ على تميزه، وتُعرف به مكانته هو المتحدر عن الغريزة السليمة، ويأتي الأدب الناتج عن الرواية تاليا له في المنزلة؛ لأنه فرع عنه، وراجع إليه فلا "يتفرع شيء إلا من أصله".

ويعد الجاحظ من أوائل النقاد الذين أشاروا إلى الغريزة، وإلى مكانتها في صناعة الشعر، حيث يرى أن الشعر في الجماعات يرتكز على عناصر

١ – البصائر والذخائر: ٢١٩/١.

٢ – العقد الفريد: ٢٤٥/٢.

ثلاثة؛ الغريزة، والبلد، والعرق، يقول عن صناعة الشعر : "وإنما ذلك عن قدر ما قسم الله لهم من الحظوظ والغرائز، والبلاد والأعراق"([1]).

وكأن الجاحظ هنا يرد على ابن سلام لجعله الحروب سببا في كثرة الشعر حينما قال: "وبالطائف شعر وليس بالكثير، وإنما كان يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء..." ([2])، لأن هذا السبب ليس بمطرد، فبنو حنيفة "مع كثرة عددهم وشدة بأسهم وكثرة وقائعهم ... ومع ذلك لم نر قبيلة قط أقل شعرا منهم"([3])، لكنه لم يبين سبب إرجاعه كثرة الشعر عند القبائل إلى العناصر الثلاثة التي ذكرها آنفا، ولم يبين ما المقصود بمصطلح الغريزة إلا ما يفهم من السياق العام من أن المقصود بالغريزة "الطبع العام المواتي للشعر"([4]).

ولما تناول الجاحظ نظرية العِرْق، وأن العربي أشعر من المولد حينما قال: "والقضية التي لا أحتشم منها ولا أهاب الخصومة فيها أن عامة العرب والأعراب والبدو والحضر من سائر العرب أشعر من عامة شعراء الأمصار والقرى من المولدة والنابتة، وليس ذلك بواجب لهم في كل ما قالوه". ([5])؛ لأن المولد قد يجيد القول إذا نشط، لكنه إذا استرسل "انحلت قوته واضطرب كلامه"([6]) ، بين الدكتور إحسان عباس أن الجاحظ لم يذكر سبب ذلك، وافترض أنه يرى أن قوة الغريزة "هي التي تتفاوت بين العرقين؛ فقوة الغريزة لدى البدوي أو العربي عامة تمده بمقدار قوتها وغزارتها، فأما غريزة المولد فإنها قصيرة الرشاء تنفد طاقتها بسرعة"([7]).

---

١ –الحيوان: ٣٨١/٤ .

٢ – طبقات فحول الشعراء: ٢١٧.

٣ – الحيوان: ٢٨٠/٤.

٤ – تاريخ النقد الأدبي عند العرب: ٨٤.

٥ – الحيوان: ١٣٠/٣.

٦ – المصدر السابق: ١٣٢/٣.

٧ – تاريخ النقد الأدبي عند العرب: ٨٥.

ويبين الجاحظ أن هناك عوامل تساعد على شحذ الغريزة وترتقي بها؛ لأنها بحاجة إلى "النظر والفكر، والتصفح والبحث"([1]).

ويذكر ابن الأثير عاملا مهما لشحذ الغريزة وصقلها، وهو الاستعانة بالمحفوظ من النصوص على الغريزة الطبيعية([2]).

ويرى ابن قتيبة أن للغريزة دورا مهما في جودة القول وسهولة إنشائه، فمتى ما كانت غريزة الأديب متوهجة بعيدة عن ما يكدرها أنتجت أدبا متميزا، وإن أصابها عارض عزب القول عنها، وصعب عليها ريِّضَ الشعر، يقول: "وللشعر تارات يبعد فيها قريبه، ويستصعب فيها ريِّضَه، وكذلك الكلام المنثور في الرسائل والمقامات والجوابات، فقد يتعذر على الكاتب الأديب، وعلى البليغ الخطيب، ولا يعرف لذلك سبب إلا أن يكون من عارض يعترض على الغريزة؛ من سوء غذاء أو خاطر غَمٍّ"([3]).

وتتناثر بعض الإشارات المقتضبة عن الغريزة عند أسامة بن منقذ؛ فقدرة المتكلم بأن يأتي كلامه شعرا من غير أن يقصد إلى ذلك – وهو ما سماه بالانسجام– دليل على قوة الطبع والغريزة([4]).

وفي باب "الحل والعقد" نقل عن الحكيم؟ أنه "بالغريزة يتعلق الأدب لا بتقادم السن"([5])، فالغريزة هي المقياس الحقيقي للأدب وجودته، وليس تقادم السن وطول العمر.

وفي باب أسماه "التعليم والترسيم" تناول تعريف الشعر، بقوله: "الشعر قول موزون مقفى دال على معنى وله طرفان؛ أحدهما غاية الجودة، والآخر غاية الرداءة، وبينهما وسائط. والمعنى للشعر بمنزلة المادة، والشعر فيه بمنزلة

---

١ – رسائل الجاحظ: ٢٣٧/٣ .

٢ – المثل السائر: ١٦١/١ .

٣ – الشعر والشعراء: ٨٧.

٤ – البديع في نقد الشعر: ٩٤.

٥ – البديع في نقد الشعر:٢١٧.

الصورة، وهو أربعة أشياء: لفظ، ومعنى، ووزن، وقافية. وتهذيبه أن يكون اللفظ سمحا سهل المخارج حلوا عذبا. وتهذيب الوزن أن يكون حسنا تقبله النفس والغريزة، غير منكسر ولا مزحف"(١).

فقبول الغريزة للوزن شرط لحسنه؛ لأنَّه إذا كان فيه عيب ظاهر نبت عنه الغريزة ولم يقع موقعا حسنا في أذن السامع. وتعريف ابن منقذ للشعر مأخوذ من تعريف المعري(٢)، ومتأثر به كما سيأتي(٣).

ولعلي بن خلف الكاتب؟ حديث عن الغريزة ودورها في صناعة الأدب، لأنها هي "الأساس الذي يُبنى عليه، والركن الذي يستند إليه"(٤)، فإذا لم يكن الأديب ذا طبع سليم، وغريزة كاملة، لم ينفعه اجتهاده في تحصيل الآداب بأن يكون خطيبا بليغا، أو كاتبا مميزا، أو شاعرا مفلقا، وقد يقصر في صقل موهبته "فيلحق بأوساط أهل الصناعة، إذا كان طبعه سليما وفكره مستقيما؛ لأن الطبع حظ يخص الله تعالى به المطبوع دون المتطبع، والمناسب بغريزته للصناعة دون الغريب المتعسف"(٥).

ولأهمية الغريزة وكونها أهم الأدوات التي يحتاجها الأديب أصبحت هي الفيصل في جودة الإبداع، فلولاها لأصبحت صناعة الأدب، كتابة، وشعرا، وخطابة "سهلة على كل من تعرض لها"، ولكنها صناعة لا تنقاد إلا لذوي الغرائز المناسبة لها"(٦).

---

١ – المصدر السابق: ٢٢٤.

٢ – رسالة الغفران: ٢٥٠.

٣ – راجع صفحة: ٩ .

٤ – مواد البيان: ٣٩٩.

٥ – المصدر السابق.

٦ – المصدر السابق: ٤٠١.

وبجب أن تكون غريزة الأديب "ينبوعها غزير"([1])، حتى يتجنب الوقوع في العيوب؛ مثل السرقة، والانتحال، والاصطراف([2]).

ويرى ابن خلف أن غرائز المطبوعين في تناول المعاني "متكافئة"، لذلك يقع الاتفاق بين الأدباء في بعضها([3])، وهو ما أسماه أيضا "بتناسب الغرائز وتشابهها"، "لاتفاق خواطرهم على كثير من المعاني التي يستنبطونها وتواردهم فيها"([4]).

ولعل جنوحه إلى هذا الرأي من تناسب الغرائز، –خلافا للجاحظ الذي يرى تفاوتها– ناتج من أخذه برأي من يرى صحة القول بتوارد الخواطر.

وكما ذكر الجاحظ – فيما سبق– من أنه لابد للغريزة من شحذ وصقل، فعلي بن خلف يطلب من الأديب ذلك أيضا، فلو كان مقتدرا على الصناعة متصرفا فيها، لجودة غريزته وصفائها فليس يكفيه ذلك؛ بل عليه أن ينهل من العلوم المختلفة المتعلقة بصناعته([5]).

---

١ – المصدر السابق: ٤٢٤.

٢ – ومعنى الاصطراف أن يصرف الشاعر البيت والبيتين والثلاثة من كلام غيره إلى أبياته ويلحقها في نظمه. مواد البيان: ٤٤٧.

٣ – انظر: المصدر السابق: ٤٧١.

٤ – صبح الأعشى: ٦٣/١.

٥ – انظر: المصدر السابق: ٤٠٣.

المطلب الأول

الغريزة عند أبي العلاء

- **تعريف الغريزة، أو مفهوم الغريزة:**

لم يقدم أبو العلاء المعري تعريفا واضحا لمصطلح الغريزة، مع كثرة استخدامه له، ويمكن أن نتلمس التعريف من خلال أقواله المختلفة، فالغريزة تعني الطبيعة، وما يجبل عليه الإنسان، "فالتأله موجود في الغرائز، يحسب من الألجاء الحرائز"(١)، فطبيعة الإنسان مجبولة على الالتجاء للإله.

- والغريزة هي السجية، التي يسكن إليها الإنسان، فقد فسر السجية بقوله: "السجية: مأخوذة من قولهم: سجا البحر والليل؛ إذا سكنا، كأنهم يريدون بها الغريزة التي يسكن إليها الإنسان ويسجو"(٢).

لكن الذي يعنينا هنا هي الغريزة التي تعد مصدر العمل الأدبي، أو الناقدة له، فهي المتعلقة بالأديب والمتلقي في آن. وهي القريحة المتميزة التي ينتج عنها القول؛ فالمعري فسر القرائح في قول المتنبي:

بِأَدْنَى ابْتِسَامٍ مِنْكَ تَحْيَا القَرَائِحُ وَتَقْوَى مِنَ الجِسْمِ الضَّعِيفِ الجَوَارِحُ(٣)

بقوله: "القرائح: جمع قريحة، وهي خالص الغريزة، ومنه قولهم: ماء قراح؛ أي: خالص لا يخالطه غيره"(٤)، ولعل المقصود بالغريزة الخالصة، الغريزة المكتملة النضج، التي ملكت نواصي القول، ولديها القدرة على تمييز الجيد من الرديء، "فالشعر كلام موزون تقبله الغريزة على شرائط، إن زاد أو نقص أبانه الحس"(٥).

---

١ – رسالة الغفران: ٤٦٤.

٢ – اللامع العزيزي: ١٣٣٩.

٣ – ديوانه: ٣٥٢.

٤ – اللامع العزيزي: ٢٤٣:.

٥ – رسالة الغفران: ٢٥٠.

والنقد "تَمْيِيزَ الجَيِّدِ مِنَ الرَّدِيءِ **بِالفِكْرِ والغَرِيزَةِ**"(١). فالغريزة هي الأداة لقبول الشعر المتميز ونقده.

وهذه الغريزة هي مصدر الكلام، من منثور ومنظوم، يتميز بها الإنسان عن سائر المخلوقات، "فالنَّظم طبع في غريزة الآدميين مطلق أن يقوله الصبي منهم والمرأة والشيخ اليَفِن والعجوز الفانية، وهو في غرائز الأمم كلها حتى إنه يحكم على أنه لا يمتنع أن يخطر الكلام الموزون لمن لم يسمع شعرا قط"(٢). ويقول الصاهل مخاطبا الشَّاحج: "وليس فينا من يزعم أنه يقدر على موزون القول، وإنما ذلك فضيلة للإنس"(٣).

فالغريزة هي مصدر الشعر ومعينه الذي لا ينضب ، لذلك نجد أبا العلاء يُرجع مصدر ما نظمه في لزومياته إلى ما سمحت به الغريزة(٤)، فهي المصدر الأول للشعر، والموطن الأول للإلهام، فمتى ما وهب الشاعر الغريزة المتكاملة أبدع شعرا أو رجزا(٥).

ومع ما للغريزة من منزلة نقدية عند المعري إلا أنه لم يقدم تفسيرا واضحا لهذا المصطلح الدقيق، لذلك حاول بعض الباحثين تفسير الغريزة عنده، فالدكتور السعيد عبادة يرى أن المقصود بالغريزة "الحس الذوقي"(٦).

وترى الدكتورة ناديا علي الدولة أن كلام أبي العلاء يشير إلى أن المقصود بالغريزة "الذوق النقدي"(٧)، وهو قريب من رأي الدكتور السعيد عبادة، لكن كلام أبي العلاء عن الغريزة أعم كما سأبين لاحقا.

١: اللامع العزيزي: ٦٠٨.

٢ – رسالة الصاهل والشاحج: ١٩٣.

٣ – المصدر السابق: ١٦١.

٤ – انظر: اللزوميات: ٢/١.

٥ – انظر: الفصول والغايات: ٣٥٩، وتفسير أبيات المعاني: ١٢٨.

٦ – أبو العلاء الناقد الأدبي: ٤٦٨.

٧ – نقد الشعر في آثار أبي العلاء: ١٠٠.

ويفترض الدكتور أحمد الساسي أن يكون قصد المعري بالغريزة "الحاسة"، ويدلل على ذلك بقول المعري "إن الغرائز تحس"، وأنه استعمل "الحاسة"، بدلا من مصطلح الغريزة، يقول: الظاهر أن الغريزة في ذهن أبي العلاء هي الحاسة، إذ وجدناه يقول مرة "إن الغرائز تحس، وألفيناه مرة أخرى يستعمل مصطلح الحاسة عوض مصطلح الغريزة..." (١).

ومع وجاهة رأيه إلا أن للباحث رأيا مغايرا، حيث يمكن أن يوجه تساؤل مهم، هو ما المقصود "بالحاسة"؟، وهل تعني الإحساس بالشيء، أو الحس؟

وكذلك قوله إن المعري استخدم مصطلح الحاسة عوضا عن مصطلح الغريزة، فأرى عدم دقة هذا القول، لأن سياق كلام المعري يدل على أن المقصود "بالحاسة" "الغريزة الحاسة، أي: صاحبة الحس المرهف، يقول: "... ومثل ثبات الحرفين قول امرئ القيس:

ألا رُبَّ يَوْمٍ صَالِحٍ لَكَ مِنْهُمَا ولا سِيَّمَا يَوْمًا بِدَارَةِ جُلْجُلِ(٢)

ألا ترى أنه في الغريزة مستقيم؟، وإذا سقط أحد الحرفين أنكرته الحاسة..." (٣)

أي: أنكرته الغريزة الحاسة.

وأيضا فإن السياقات المختلفة التي جاء بها مصطلح الغريزة يدل على خلاف ذلك، فمثلا قوله معلقا على بيت المتنبي:

إنَّ السِّلاحَ جَمِيعُ النَّاسِ يَحْمِلُهُ وَلَيْسَ كُلُّ ذَوَاتِ المِخْلَبِ السَّبُعُ(٤)

---

١ – رؤية أبي العلاء المعري في الشعر: ٢٨.

٢ – في الأصل: " ألا رُبَّ يَوْمٍ صَالِحٍ لَكَ مِنْهُنَّ صالح"، وهو خطأ، إذ لا يستقيم الوزن، والتصحيح من رسالة الغفران: ٣١٧، وانظر الحاشية رقم ٣.

والبيت في ديوان امرئ القيس: ١٠، وروايته: " ألا رُبَّ يَوْمٍ لَكَ مِنْهُنَّ صَالِحٍ".

٣ – الصاهل والشاحج: ٤٨١، وإنكار الحاسة له لسقوط الحرف الساكن من التفعيلة السباعية كما في رواية: " ألا رُبَّ يَوْمٍ لَكَ مِنْهُنَّ صَالِحٍ".

٤ – ديوانه: ٣٠٧.

"من تأمل مذاهب العرب علم أن من يقول الشعر بالغريزة لا يتصور الإضمار في ليس؛ لأن في ذلك تكلف شديد"([1]) ، ويقول أيضا شارحا بيت المتنبي:

قَطَفَ الرِّجَالُ القَوْلَ وَقْتَ نَبَاتِهِ وَقَطَفْتَ أَنْتَ القَوْلَ لمَّا نَوَّرَا([2])

"المعنى أني مدحت الناس وأنا شاب مبتدئ في قول الشعر، ومدحتك بعد أن تكاملت الغريزة في إحكام القريض وانتهت، فكان قولي كالنبت الذي هو نور فهو أحسن أوقات نباته"([3]).

فهنا لا يمكن تفسير الغريزة بالحس، بل الأقرب أن تفسر بالسجية، أو الطبع([4])، فهو الأنسب، لكنه الطبع المتحدر من غير تكلف ولا تعسف.

١ – اللامع العزيزي: ٦٧٥.

٢ – ديوانه: ٥٤٠.

٣ – تفسير أبيات المعاني: ١٢٨.

٤ – وقد ذهب إلى ذلك أيضا الدكتور وليد خالص، أبو العلاء المعري ناقدا: ٩٦.

المطلب الثاني

تفاوت الغريزة

تتفاوت الغريزة عند المبدعين، كما تتفاوت عند الرجال والنساء، فقد توجد الغريزة عند الرجل دون المرأة، أو عكس ذلك، فمثلا نساء حلب "كنَّ أجود غرائز من رجالهن"(١)، ولم يعلل أبو العلاء سبب ذلك، ولعله راجع إلى بيئة حلب في عصره لا إلى الجنس مطلقا.

ويحكي المعري عن رجل ضرير من آمد أنه كان مائلا إلى العلم ، وكان يحفظ الشعر ويدرسه، إلا أنه ليس له غريزة تعينه على معرفة الأوزان حتى ينشده إنشادا صحيحا، فتنبهه زوجته إلى الخلل، لأن غريزتها وحاستها الموسيقية أقوى منه، يقول: "حدث رجل ضرير من آمد، يحفظ القرآن ويأنس بأشياء من العلم، أنه كان وهو شاب له امرأة مقينة تزين النساء في الأعراس، ... وكانت له قرعة فيها أشعار كنحو ما يكون في القرع، وكان يعتمد حفظ تلك الأشعار ويدرسها في بيته، ولا غريزة له في معرفة الأوزان، فيكسر البيت، فتقول له امرأته الماشطة: ويلي، ما هذا جيد، فيلاجها ويزعم أنها مخطئة، فإذا أصبح مضى فسأل من يعرف ذلك، فأخبره أن الصواب معها، وعرفه كيف يجب أن يكون، فإذا لقنه عنه عاد في الليلة الثانية فذكره وقد أصلح، فتقول الماشطة: هذا الساعة جيد"(٢).

وكان يعمل عند أبي العلاء رجل من البادية، وله امرأة تزعم أنها طائية، كان لا يعرف موزون الأبيات من مكسورها، وكانت امرأته تلك تحس بالخلل(٣)، وما ذاك إلا لأن غريزتها أغزر وذائقتها الموسيقية أدق.

---

١ – رسالة الغفران: ٥٨٠.

٢ – المصدر السابق.

٣ – انظر: المصدر السابق.

وفيما سبق دليل أن حفظ الأشعار لا يجعل من المرء شاعرا مفلقا، فلا بد من الغريزة المتكاملة التي تساعده على تمييز الجيد من الرديء، ولن يتأتى ذلك إلا "بالدربة الطويلة، والتجربة المتكررة، من العلم بالكلام والجدل والنظر في الفقه وأحكام الشعر اللطيفة"([1]) .

كما أن الغريزة متفاوتة بين البشر –كما كان رأي الجاحظ– كل له حظ منها مغاير عن الآخرين.

١ – الصاهل والشاحج: ١٩٣.

المطلب الثالث

تطور الغريزة

الغريزة متحولة وليست ثابتة، وتتطور حسب معطيات العصر الذي تعيش فيه، وقد ألمح أبو العلاء إلى ذلك، فغرائز المحدثين قد تحس بعيب موسيقي ظاهر في الأبيات، لكن لم يحفل به القدماء، مع تنبههم له، فابن القارح يسائل امرأ القيس عن خلل موسيقي في أبيات عديدة له، ما شأنها، وهل كانت غرائزكم لا تحس بذلك، يقول: "فأخبرني عن كلمتك "الصَّادِيَّة" و"الضادية" و"النونية" التي أولها:

لِمَنْ طَلَلٌ أَبْصَرْتُهُ فَشَجَانِي كَخَطِّ زَبُورٍ فِي عَسِيبِ يَمَانِي(١)

لقد جئت فيها بأشياء ينكرها السمع كقولك:

فَإِنْ أُمْسِ مَكْرُوبًا فَيَارُبَّ غَارَةٍ شَهِدْتُ على أَقَبّ رِخْوِ اللَّبَانِ(٢)

وكذلك قولك في الكلمة الصادية(٣):

على نِقْنِقٍ هَيْقٍ لَهُ وَلِعِرْسِهِ بِمُنْقَطِعِ الرَّعْسَاءِ بَيْضٌ رَصِيصُ(٤)

وقولك:

فَأَسْقى بِهِ أخْتِي ضَعِيفَةَ إِذْ نَأَتْ وَإِذْ بَعُدَ المُزْدَارُ غَيْرُ القَرِيضِ(٥)

---

١ – ديوانه: ٨٥.

٢ – ديوانه: ٨٦.

٣ – وهي التي مطلعها:

أمن ذكر سلمى أن نأتك تنوص فتقصر عنها خطوة أو تبوص

ديوانه: ١٧٧.

٤ – ديوانه: ١٧٩، وروايته: "بمنعرج الوعساء".

٥ – من قصيدته التي مطلعها:

أعني على برق أراه وميض يضيء حبيًّا في شماريخ بيض

ديوانه: ٧٢، والبيت: ٧٣، وروايته: وإذ بعد المزار".

في أشباه لذلك، هل كانت غرائزكم لا تحس بهذه الزيادة؟ أم كنتم مطبوعين على إتيان مغامض الكلام وأنتم عالمون بما يقع فيه؟ كما أنه لا ريب أن زهيرا كان يعرف مكان الزحاف في قوله:

يَطْلُبُ شَأْوَ امْرَأَيْنِ قَدَّمَا حَسَنًا نَالا المُلوكَ وَبَذَّا هَذِهِ السُّوقَا(١)

فإن الغرائز تحس بهذه المواضع، فتبارك الله أحسن الخالقين.

فيقول امرؤ القيس: أدركنا الأولين من العرب لا يحفلون بمجيء ذلك، ولا أدري ما شجن عنه، فأما أنا وطبقتي فكنا نمر في البيت حتى نأتي إلى آخره، فإذا فني وقارب، تبين أمره للسامع"(٢).

فالخلل الموسيقي ظاهر في الأبيات، والغرائز تحس بذلك، لكن القدماء لم يتوقفوا عنده، ولم يحفلوا به، أما "غرائز الناس اليوم"(٣) فتنفر منه ، وما ذاك إلا لتطور الحس الموسيقي لديهم فعدوه خللا معيبا كانوا يطالبون الشاعر بالتنبه له وإصلاحه.

والإقواء من العيوب التي وقع بها كثير من الشعراء في العصر الجاهلي، ويفهم من كلام أبي العلاء على لسان امرئ القيس أنهم لا ينكرونه، بل لا يعدونه عيبا، وهو عند المحدثين خلل موسيقي معيب، يبعد أن يقع فيه امرؤ القيس، وما ذاك إلا نتيجة لتطور الغريزة لديهم، وإحساسها الدقيق بالخلل الموسيقي، يقول ابن القارح مخاطبا امرأ القيس: "كيف ينشد:

جَالَتْ لِتَصْرَعَنِي فَقُلْتُ لها قِرِي إِنِّي امْرُؤٌ صَرْعِي عَلَيْكِ حَرَامُ(٤)

---

١ – شرح شعر زهير: ٤٨.

٢ – رسالة الغفران: ٣١٥.

٣ – الصاهل والشاحج: ٦٢٩.

٤ – ديوانه: ١١٦، وروايته: "فقلت لها اقصري"..

أتقول: "حرامُ" فتقوي، أم تقول: "حرامِ" فتخرجه مخرج "حذام" و"قطام"، وقد كان بعض علماء الدولة الثانية يجعلك لا يجوز عليك، فيقول امرؤ القيس: لا نَكِرَةَ([1]) عندنا في الإقواء، أما سمعت البيت في هذه القصيدة:

فَكَأَنَّ بَدْرًا وَاصِلٌ بِكُتَيْفَةٍ وَكَأَنَّمَا مِنْ عَاقِلٍ أَرْمَامُ([2])

فيقول: لقد صدقت يا أبا هند؛ لأن إرماما هاهنا ليس واقعا موقع الصفة فيحمل على المجاورة؛ لأنه محمول على "كأنما"، وإضافته إلى ياء النفس تضعف الغرض"([3]).

فأبو العلاء هنا يقرر أن كلا بيتي امرئ القيس فيهما إقواء، واحتج على وروده في البيت الأول، إعادته في البيت الثاني، ولا مفر من إقراره هنا؛ لأن إضافته إلى ياء المتكلم تُضعف الغرض، وقد يكون خلاف المقصود من سرعة الناقة.

واستعمال "فعولن"، تامة على الأصل قبل الضرب– في البحر الطويل– وعدم حذف الخامس منها، مما قبلته الغريزة في العصر الجاهلي، أما غرائز الشعراء من العصر الأموي وما بعده فتنفر منه، فقد جاء في شعر امرئ القيس في مثل قوله:

وَإِنْ أُمْسِ مَكْرُوبًا فَيَارُبَّ غَارَةٍ شَهِدْتُ على أَقَبَّ رِخْوِ اللَّبَانِ([4])

وقد "نفرت من ذلك غرائز الناس اليوم"، وقد "تردد كثيرا في شعره ... فأما طبقة جرير ومن بعده إلى اليوم فلا يعرض أحد منهم لاستعمال شيء من هذا الوزن على الأصل"([5]).

---

١ – أي: لا إنكار. انظر: اللسان "نكر".

٢ – ديوانه: ١١٦، وروايته: "وكأنما بدر وصيل كُتيفة".

٣ – رسالة الغفران: ٣٢٠.

٤ – ديوانه: ٨٦.

٥ – الصاهل والشاحج: ٦٢٩–٦٣٠.

المطلب الرابع

مستويات الغريزة

- **الغريزة الخالصة**

للغريزة مستويات من ناحية القوة والضعف، فأعلى مستويات الغريزة هي "الغريزة الخالصة"، التي لديها القدرة على تمييز الجيد من الرديء، وإصلاح الخلل إن كان فيه خلل، فهي القادرة على الإبداع والنقد، وهي التي تمتلك حاسة موسيقية مرهفة تستطيع تبيُّن الخلل، أو موطن الإبداع، وإن كان دقيقا خافيا لا يظهر، فالبسيط الذي عروضه مجزوءة مقطوعة وضربه مثلها "لا يجيء حسنا إلا أن يلحقه بعض التغيير عما هو في الأصل، فمن ذلك قول عبيد:

تَصْبُو وأنَّى لَكَ التَّصَابِي أَنَّ وَقَدْ رَاعَكَ المَشِيبُ(١)

وفيها:

مَنْ يَسْأَلِ النَّاسَ يَحْرِمُوهُ وَسَائِلُ الله لا يَخِيبُ(٢)

فهذان البيتان إنما حسنا في الوزن لأجل شيء سقط منهما فقبلتهما الغريزة الخالصة. ألا ترى إلى قوله:

والمَرْءُ ما عَاشَ في تَكْذِيبِ طُولُ الحَيَاةِ لَهُ تَعْذِيبُ(٣)

كيف هو مخالف لهذين البيتين؟"(٤).

فالغريزة الخالصة هي التي تشعر بالفرق الموسيقي الدقيق بين الأبيات الثلاثة، حيث إنه لما دخل الخبن العروض والضرب في البيتين الأولين، حسنا

---

١ – ديوانه: ١٢.

٢ – ديوانه: ١٥.

٣ – ديوانه: ١٥.

٤ – الصاهل والشاحج: ٥٧٩.

وقبلتهما الغريزة، بخلاف البيت الثالث الذي جاء على الأصل، فظهر ثقله، ونبوه في الغريزة.

وقد أكد المعري على وصف الغريزة "بالخالصة" في تعريفه لكلمة القرائح، حيث قال: "القرائح جمع قريحة، وهي خالص الغريزة"(١)، مما يعني أن هناك غرائز أقل درجة منها.

- **الغريزة المتكاملة:**

هي التي بلغت الغاية في الإجادة لتكاملها ونضجها وعمق تجربتها وثرائها، لذلك ملكت ناصية القول وبراعته، وذلك مجال لافتخار الشاعر بشاعريته إذا بلغ هذه المنزلة، فالمتنبي لما مدح عضد الدولة بقوله:

قَطَفَ الرِّجَالُ القَوْلَ وَقْتَ نَبَاتِهِ وَقَطَفْتَ أَنْتَ القَوْلَ لَمَّا نَوَّرَا(٢)

علّق عليه المعري بقوله: "المعنى أني مدحت الناس وأنا شاب مبتدئ في قول الشعر، ومدحتك بعد أن تكاملت الغريزة في إحكام القريض وانتهت، فكان قولي كالنبت الذي هو نَوْرٌ فهو أحسن أوقات نباته"(٣).

فتكامل غريزة المتنبي وامتلاكه ناصية القول جعلته كأنه يدل على ممدوحه بأن مدحه له كان أحسن المدح؛ لأنه جاء بعد تكامل الغريزة، وليس كمدح من سبقه الذي كان يعد دربة لمدحك.

- **الغريزة الصحيحة:**

ذكر المعري هذا الوصف للغريزة بعد ذكره لبيت البحتري:

مَنْ يَتَجَاوَزْ على مُطَالَبَةِ الـ عَيْشِ تَقَعْقَعْ مِنْ مَلَّةٍ عَمَدُهْ(٤)

---

١ – اللامع العزيزي: ٢٤٣.

٢ – ديوانه: ٥٤٠.

٣ – تفسير أبيات المعاني: ١٢٨.

٤ – ديوانه: ٧٣٦، وروايته هناك: "على مطاولة العيش".

حيث قال: "هذا البيت فيه شيء تنكره الغريزة الصحيحة، وهو في موضع النون من "مِنْ"، ولو كان في موضعه "لملة" كان أقوم في الحس"([1]).

وهذا الشيء المنكر في موسيقى البيت دقيق لا يلاحظه كل أحد، لذلك خص به الغريزة الصحيحة التي تستطيع إدراك الفروق الموسيقية الدقيقة.

١ – عبث الوليد: ١٨٢.

المطلب الخامس

معايير نقد الغريزة

استخدم المعري معايير نقدية عديدة للغريزة من خلال أحكامه المختلفة يمكن حصرها كما يلي:

- الغريزة "تحس"، والغالب أن إحساسها يكون إحساسا يستطيع أن يكشف عن الخلل، فابن القارح يسأل امرأ القيس عن الزيادة في وزن أبيات أنشدها له و"هل كانت غرائزكم لا تحس بهذه الزيادة؟"، و"الغرائز تحس بذلك"([1])، وكذلك قوله:" وإذا سقط أحد الحرفين أنكرته الحاسة..." ([2]).

-الغريزة "تقبل"، فمن شروط قبول الشعر قبول الغريزة له؛ لأنَّ الشِّعر "كلام موزون تقبله الغريزة على شرائط، إن زاد أو نقص أبانه الحس"([3]).

كما أن قبول الغريزة علامة على حسن ما ذهب إليه الشاعر –مثل ما مرَّ آنفا– أن البسيط الذي عروضه مجزوءة مقطوعة وضربه مثلها "لا يجيء حسنا إلا أن يلحقه بعض التغيير عما هو في الأصل، فمن ذلك قول عبيد:

تَصْبُو وَأَنَّى لَكَ التَّصَابِي أَنَّ وَقَدْ رَاعَكَ المَشِيبُ(٤)

وفيها:

مَنْ يَسْأَلِ النَّاسَ يَحْرِمُوهُ وَسَائِلُ اللهِ لا يَخِيبُ(٥)

"فهذان البيتان إنما حسنا في الوزن لأجل شيء سقط منهما فقبلتهما الغريزة الخالصة"([6]).

---

١ – رسالة الغفران: ٣١٥–٣١٧.

٢ – الفصول والغايات: ٤٨١، وانظر أيضا: ضوء السقط: ٢٦٤.

٣ – رسالة الغفران: ٢٥١.

٤ – ديوانه: ١٢.

٥ – ديوانه: ١٥.

٦ – الصاهل والشاحج: ٥٧٩.

والبحر الطويل إذا "استعمل على غير ما يجب له في الأصل حسن وقبلته الغريزة"([1]) لحسن جرسه الموسيقي.

- الغريزة "تُقَوِّم"، وذلك أن يكون ما أتى به الشاعر قويما تقبله الغريزة مثل أن يحذف حركة لا يُشْعر بها، فلو أن المتنخل الهذلي حذف الياء من "معاري" في قوله:

أَبِيتُ على مَعَارِيَ فَاخِرَاتٍ بِهِنَّ مُلَوَّبٌ كَدَمِ العِبَاطِ(٢)

وقال: "على معار فاخرات، لم يخلَّ بالبيت، وإنما كان ينقصه حركة لا يشعر بها في الغريزة، ولا تعدم قصيدة من قصائد العرب والمحدثين إذا كانت على وزن بيت الهذلي ... أن تجيء فيها مواضع كثيرة قد حذفت منها الحركات، والأبيات قويمة في الغريزة"([3]).

- الغريزة "تنكر"، فما وقع فيه خلل من القريض أنكرته الغريزة، فلو لم يصرف أبو الطيب المتنبي كلمة "شعوب" في قوله:

ولا فَضْلَ فِيها للشَّجَاعَةِ والنَّدَى وَصَبْرِ الفَتَى لوْلا لِقَاءَ شَعُوبِ(٤)

لأدَّى "إلى زحاف تنكره الغريزة"([5]). ولو نُوِّنَتْ كَلِمَةُ "مَشِيد" في الشطر الأول من قوله:

فلا مُشَادٌ ولا مَشِيدَ حَمَى ولا مُشِيدٌ أغْنَى ولا شَائِدْ(٦)

لجاز ذلك "إلا أنَّهُ يحدث في الوزن شَيْئًا تُنكره الغريزة"([7]).

---

١ – المصدر السابق: ٦٢٩.

٢ – شعر المتنخل الهذلي، ضمن ديوان الهذليين: ق٢/٢٠.

٣ – رسالة الملائكة: ٢١٠، وراجع أيضا: اللامع العزيزي: ١٠٠٧، وعبث الوليد ١٩.

٤ – ديوانه: ٣١٥.

٥ – اللامع العزيزي: ٤١.

والزحاف الذي يقع لو لم يصرف الكلمة القبض، وهو حذف الخامس الساكن..

٦ – ديوانه: ٥٧١.

٧ – اللامع العزيزي: ٤١٦.

كما أنَّ البحتري لو شَدَّدَ باء "قُطْرُبُلِ" على الأصل في قوله([1]):

يَوْمٌ بِغُمَّى تُجْلَى بِطَلْعَتِهِ الـ غَمَّاءُ أَوْ لَيْلَةٌ بِقُطْرُبُلِ

"لكان في البيت ما تنكره الغريزة"([2]).

وليس كل زحاف معيبا، فقد يأتي في البيت زحاف "لا تنكره الغريزة"([3])، مثل قول المتنبي:

إلى البَدْرِ بْنِ عَمَّارٍ الذِي لَمْ يَكُنْ فِي غُرَّةِ الشَّهْرِ الهِلالا(٤)

فقد سقطت أربع حركات في أربعة مواضع، لكن الغريزة هنا لم تنكره، لعدم تأثر موسيقى البيت.

- الغريزة "تَنْفر"، ونفورها دليل على وقوع خلل أو خطإ في البيت، مثل قول هميان بن قحافة في وصف الثور الوحشي:

يَقُولُ أَصْبِحْ لَيْلُ لَوْ يَفْعَلُّ حَتَّى إذا الصُّبْحُ بَدَا الأَشْعَلُّ

ظَلَّ كَسَيْفٍ شَفَّهُ الصَّيْقَلُّ

فقد شدد حرف اللام من الكلمات "يَفْعَلُّ" و"الأَشْعَلُّ"، و"الصَّيْقَلُّ"، في غير الوقف، وذلك مما "ينكره السمع وتنفر منه الغريزة"([5]).

ولما استعمل امرؤ القيس "فعولن"، تامة على الأصل قبل الضرب، ولم يحذف الخامس منها في قوله:

وَإِنْ أُمْسِ مَكْرُوبًا فَيَارُبَّ غَارَةٍ شَهِدْتُ على أَقَبَّ رِخْوِ اللَّبَانِ(٦)

---

١ – ديوانه: ١٨٥٣.

٢ – عبث الوليد: ٤٤٣.

٣ – اللامع العزيزي: ١٠١٨، وانظر أيضا: ١٥٢٨، والصاهل والشاحج: ٥٤١. والزحاف هو العصب؛ تسكين الخامس المتحرك.

٤ – ديوانه: ١٢٩.

٥ – الصاهل والشاحج: ٤٦١.

٦ – ديوانه: ٨٦.

"نفرت من ذلك غرائز الناس اليوم"([1])، كما أنها تنفر من خبن الخماسي في بحر البسيط([2]).

– الغريزة "تكره"، فلو حذفت الألف الساكنة من كلمة "المقراة" في قول امرئ القيس:

فَتُوضِحَ فَالمِقْرَاةِ لَمْ يَعْفُ رَسْمُهَا لِمَا نَسَجَتْهُ مِنْ جَنُوبٍ وَشَمْأَلِ(٣)

"لظهر فيه زحاف تكرهه الغريزة"([4]).

–الغريزة "تنبو"، والنُّبُو دليل على كثرة العيوب في القصيدة، مثل معلقة عبيد التي مطلعها([5]):

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبُ فَالقُطُبِيَّاتُ فَالذَّنُوبُ

فهي "تنبو عنها الغرائز"([6]) لهلهلتها وعدم التئام أجزائها.

- هناك معايير أخرى يمكن أن تفهم من خلال سياق حديث المعري مثل إن الغريزة "تُحَسِّن"([7])، "تُقَبِّح" ([8]) .

---

١ – الصاهل والشاحج: ٦٢٩.

٢ – انظر: اللامع العزيزي: ١٥٢٩.

٣ – ديوانه:٨، وروايته: "نسجتها".

٤ – ضوء السقط: ٢٢٦.

والزحاف الذي تكرهه الغريزة في البحر الطويل هو زحاف الكف؛ حذف السابع الساكن.

٥ – ديوانه: ١٠.

٦ – اللامع العزيزي: ١٧٦، وراجع عن نبو الغريزة أيضا: رسائل أبي العلاء: ١٢٥.

٧ – اللامع العزيزي: ١٨١، وعبث الوليد: ١٩.

٨ – الصاهل واالشاحج: ٤٧٨.

المطلب السادس

عيوب الغريزة

إذا كانت الغريزة خالصة ومتكاملة استطاعت أن تنتج أدبا مميزا، لكن قد يعتريها بعض العيوب التي تقصر بها عن الغاية، ومن أبرز هذه العيوب حائل الغريزة الذي يعرض لها "من سوء غذاء أو خاطر غمٍّ"(١) فعندئذ على الأديب التوقف، حتى لا يُنتج أدبا ركيكا، أو قولا ضعيفا، فإنه إذا "عصتك الغريزة فعليك الصمات إن كان كلامك لا ينتفع به سواك"(٢).

وفساد الغريزة الذي يؤدي إلى فساد الشعر، أو إفساده بالرواية الخاطئة له من العيوب الظاهرة في الغريزة، مثل زيادة الواو في أبياتٍ من معلقة امرئ القيس سأله ابن القارح عنها بقوله: "ياأبا هند، إن رواة البغداديين ينشدون في "قفا نبك" هذه لأبيات بزيادة الواو في أولها، أعني قولك:

وَكَأَنَّ ذُرَى رَأْسَ المُجَيْمِرِ غُدْوَةً(٣) .....

وكذلك:

وَكَأَنَّ مَكَاكِيَّ الجِوَاءِ... (٤) .....

---

١ – الشعر والشعراء: ٨٧.

٢ – الفصول والغايات: ١٧٤.

٣ – ديوانه: ٢٥، والبيت بتمامه:

كأن طمية المجيمر غدوة من السَّيْلِ والغُثَّاء فَلْكَةُ مِغْزَلِ

وأشار محقق الديوان إلى رواية المعري صفحة ٣٧٥.

٤ – البيت بتمامه:

كأن مكاكي الجواء غدية صبحن رحيقا من سلاف مفلفل

ديوانه: ٣٧٦.

وَكَأنَّ السِّبَاعَ فِيهِ غَرْقَى ... (١) .....

فيقول: أبعد الله أولئك، لقد أساءوا الرواية، وإذا فعلوا ذلك فأي فرق يقع بين النظم والنثر؟ وإنما ذلك شيء فعله من لا غريزة له في وزن القريض، فظنه المتأخرون أصلا في المنظوم، وهيهات هيهات"(٢).

فهذه الزيادة أحدثت خللا في موسيقى الأبيات الثلاثة، وألغت الفارق بين الشعر والنثر، وما ذاك إلا لفساد غريزة أولئك الرواة، وعدم معرفتهم لأوزان الشعر.

ومن عيوب الغريزة ركاكتها، بحيث لا تستطيع التفريق بين الحسن والقبيح، فقد جاء في "أشعار المحدثين "إليّ وعليّ، ونحو ذلك، وهو دليل على ضعف المنة وركاكة الغريزة"، لأن الغريزة الخالصة أو المتكاملة لا تقبل مجيء مثل ذلك، لما فيه من خلل ظاهر وصعوبة في النطق، لذلك "لم يأت كسر هذه الياء في شعر فصيح"(٣).

وقد يصيب الغريزة الفساد نتيجة لضعف إدراكها، وقلة تمكنها من تصور الأشياء، فتصور "لصاحبها ما يقع الإجماع على بطلانه، تظن السمجة أنها جميلة، والقصيرة أنها فارعة، واليد البخيلة أنها فارعة"(٤).

---

١ – البيت بتمامه:

كأن سباعا فيه غرقى غدية بأرجائه القصوى أنابيش عنصل

ديوانه: ٢٦، وأشار المحقق إلى رواية المعري في صفحة ٣٧٦.

٢ – رسالة الغفران: ٣١٣.

٣ – المصدر السابق: ٤٥٦.

٤ – الصاهل والشاحج: ١٦٨.

الخاتمة

وبعد، فمن خلال ما سبق تناوله في بحث "الغريزة مقياس نقدي عند أبي العلاء"، توصل الباحث إلى ما يلي:

- لم يكن استخدام مصطلح الغريزة كثير الدوران عند النقاد القدماء، ويعد الجاحظ أهم ناقد – قبل أبي العلاء– استخدم هذا المصطلح بمفهومه النقدي.
- يعنى بالغريزة عند أبي العلاء "الطبع"، حسب ما استنتجه الباحث.
- الغريزة ليست ثابتة، بل متفاوتة، وتتطور حسب معطيات العصر الذي يعيش فيه الأديب أو المتلقي.
- استطاع الباحث تحديد ثلاثة مستويات للغريزة بيَّنها أبو العلاء؛ وهي الغريزة الخالصة، والغريزة المتكاملة، والغريزة الصحيحة.
- استخدم المعري معايير نقدية عديدة للغريزة، كان أهمها:

–أن الغريزة "تحس".

– أن الغريزة "تقبل".

– أن الغريزة "تقوم"،

– أن الغريزة "تنكر".

– أن الغريزة "تكره".

– أن الغريزة تنبو.

– من أهم عيوب الغريزة عند المعري:

– فسادها، الذي يؤدي إلى فساد الشعر، أو إفساده بالرواية الخاطئة له.

– استحالة الغريزة نتيجة لما يعرض لها من سوء غذاء أو خاطر غمٍّ.

– ركاكتها، بحيث لا تستطيع التفريق بين الحسن والقبيح.

وختاما آمل أن أكون قد وُفِّقت في هذا البحث الذي تناولت فيه "الغريزة" عند أبي العلاء واستخدامها مقياسا نقديا بالنسبة للمبدع والمتلقي، وإن أخطأت فحسبي أني اجتهدت، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع

- أبو العلاء المعري ناقدا. د/وليد محمود خالص. وزارة الثقافة والإعلام العراقية ١٩٨٢م.
- أبو العلاء الناقد الأدبي. د/السعيد السيد عبادة. دار المعارف. مصر. ١٩٧٧م.
- البديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ. تحقيق د/ أحمد بدوي، و د/حامد عبد المجيد. مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي . القاهرة ١٣٨٠هـ.
- البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي. تحقيق د/ وداد القاضي. ط(١) دار صادر بيروت د.ت
- تاريخ النقد الأدبي عند العرب. د/إحسان عباس. ط(٢)، ١٣٩٨هـ. دار الثقافة. بيروت.
- تفسير أبيات المعاني من شعر أبي الطيب المتنبي. لأبي المرشد المعري تحقيق د/ مجاهد محمد الصواف، والدكتور محسن غياض عجيل. جامعة الملك عبد العزيز مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي ١٣٩٩.
- جمهرة اللغة لابن دريد تحقيق د/ رمزي منير البعلبكي. ط(١) ١٩٨٧م. دار العلم للملايين بيروت. لبنان.
- الحيوان للجاحظ. تحقيق عبدالسلام محمد هارون. ط(٢) منشورات شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .د.ت.
- دلائل النبوة. لأبي بكر البيهقي. تحقيق د. عبدالمعطي قلعجي. ط(١)، ١٤٠٨هـ. دار الكتب العلمية. بيروت.
- ديوان امرئ القيس. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .ط(٤) ١٩٨٤م. دار المعارف بمصر.
- – ديوان البحتري. تحقيق حسن كامل الصيرفي. ط(٣) ١٩٧٩م. دار المعارف بمصر.

- ديوان أبي الطيب المتنبي. صححها وقارن نسخها وجمع تعليقاتها د.عبدالوهاب عزام. مطبعة لجنة التأليف والنشر. القاهرة ١٣٦٣هـ.
- ديوان عبيد بن الأبرص. تحقيق د. حسين نصار. ط(١) ١٣٧٧هـ. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي. مصر.
- ديوان الهذليين. الناشر الدار القومية للطباعة والنشر. القاهرة. ١٣٨٥هـ.
- رؤية أبي العلاء المعري في الشعر. د/أحمد ساسي الشتيوي. حوليات كلية الآداب. جامعة الكويت. الحولية السادسة عشرة ١٤١٦هـ.
- رسائل أبي العلاء المعري. عالم الكتب. بيروت. د.ت.
- رسائل الجاحظ. تحقيق عبدالسلام محمد هارون. مكتبة الخانجي. القاهرة. د.ت.
- رسالة الصاهل والشاحج. لأبي العلاء المعري. تحقيق د. عائشة عبدالرحمن. ط(٢) ١٤٠٤هـ. دار المعارف بمصر.
- رسالة الغفران. لأبي العلاء المعري. تحقيق د. عائشة عبدالرحمن. ط(٦) ١٩٧٧م. دار المعارف بمصر.
- رسالة الملائكة. لأبي العلاء المعري. تحقيق محمد سليم الجندي. دار صادر. بيروت ١٤١٢هـ.
- زهر الآداب وثمر الألباب للحصري القيرواني. شرح علي محمد البجاوي. ط(٢) ١٩٦٩م. دار إحياء الكتب العربية. عيسى البابي الحلبي. القاهرة.
- شرح شعر زهير بن أبي سلمى. صنعة أبي العباس ثعلب.تحقيق د/ فخر الدين قباوة. ط (١) ١٤٠٢هـ دار الآفاق الجديدة. بيروت.
- الشعر والشعراء لابن قتيبة. تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر. ط (٣) ١٩٧٧م. دار التراث العربي. مصر.

- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء للقلقشندي مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٥هـ.
- ضوء السقط. لأبي العلاء المعري. تحقيق بنحامي فاطمة. المجمع الثقافي ١٤٢٤هـ. أبو ظبي. الإمارات العربية المتحدة.
- طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي. قرأه وشرحه محمود محمد شاكر. مطبعة المدني ١٩٧٤م.
- عبث الوليد لأبي العلاء المعري. تحقيق ناديا علي الدولة. د.ت. د.ن.
- العقد الفريد لابن عبدربه تحقيق أحمد أمين وآخرون. دار الكتاب العربي بيروت ١٤٠٣هـ.
- الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ. لأبي العلاء المعري. ضبطه محمود حسن زناتي. منشورات دار الآفاق الجديدة. بيروت. د.ت.
- الكليات لأبي البقاء الكفوي. تحقيق د/عدنان درويش، ومحمد المصري. وزارة الثقافة والإرشاد. دمشق ١٩٨١م.
- اللامع العزيزي شرح ديوان المتنبي. لأبي العلاء المعري. تحقيق د.عبدالله بن صالح الفلاح. ط(١)، ١٤٣٦هـ. دار الصحوة. القاهرة.
- اللزوميات لأبي العلاء المعري. ط(١)، ١٤٠٣هـ. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان.
- لسان العرب لابن منظور. دار المعارف بمصر. د.ت.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الأثير. تحقيق د/أحمد الحوفي ود/بدوي طبانة .ط(٢) ١٤٠٣هـ. دار الرفاعي. الرياض.
- مجموع الفتاوى لابن تيمية. تحقيق عبدالرحمن بن قاسم. مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. المدينة المنورة. ١٤١٦هـ.
- مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر. اختصره ابن منظور. ط(١)، ١٤٠٢هـ. دار الفكر. دمشق.

- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي. أحمد بن محمد الفيومي. المكتبة العلمية. بيروت. لبنان. د.ت.
- مواد البيان لعلي بن خلف الكاتب. تحقيق د. حسين عبداللطيف. منشورات جامعة الفاتح. طرابلس. ليبيا. ١٩٨٢م.
- نقد الشعر في آثار أبي العلاء المعري. د. ناديا علي الدولة.د. ت. د.ن.
- وفيات الأعيان لابن خلكان. تحقيق د/ إحسان عباس. دار صادر. بيروت ١٩٦٨م.